

عموا أن من أظهر خصائص الأديب حرصه على أن يصل بين نفسه وبين الناس، فأثار شئىء من هذا في نفسه خاطراً من الخواطر، أو حث عقله على الروية والتفكير، الرأي، أو تلك العاطفة أو ذلك الخاطر فيدقّ رتم الدفاتر أو علق طعنة من القرطاس. وإنما يحس للناس، وهو لا يشعر لنفسه وإنما يشعر للناس، وهو لا يفكر لنفسه وإنما يفكر للناس. وهو بعبارة واضحة لا يعيش لنفسه وإنما يعيش للناس، ويضللها أقبج التضليل، معتدلاً لرأى في نفسه فهو شقي تعس محزون، يحب أن يعلن إلى الناس ما يجد من شقاء وتعس وحزن، وأحبها قليلاً أو كثيراً، فهو يسجل ما يحس وما يشعر وما يفكر ليحفظه من الضياع، وليستطيع العودة إليه من حين إلى حين كلما خطر له أن يستعرض حياتها الماضية، والذاكرة قصيرة ضعيفة، فلم لا يسجل خواطره وعواطفه وآراءه التي يتكون منها تاريخه الفردي الخاص؛ أديب ويعملها بهذه الألوان من التّعّلات، لا يستطيع أن يعيش إلا إذا كتب، يكتب لأن يحتاج إلى الكتابة كما يأكل ويشرب ويدخن لأنه محتاج إلى الطعام والشراب والتدخين، وهو حين يكتب قلماً يفكر فيما يحسن أن يكتب، وما ينبغي ألا يعرفه القرطاس أو يجري به القلم، كما أنه حين يأكل ويشرب قلماً يفكر فيما يلائم صحته وطبيعته ومزاجه من ألوان الطعام والشراب وأصناف التبغ، إنما هي حاجة تضطره إلى الحركة، فيتحرك وتدفعه إلى العمل فيعمل، وأكبر الظن أنه صحيح، فيجب أن يكون صاحباً الذي أريد أن أتحدث إليك عنها ديباً، أو بعبارة أدق في الصورة الأدبية التي يظهر فيها ما أحس وما شعر وما قرأ وما رأى وما سمع.

وكانت مشقة شديدة في إخفاء تفكيره هذا علناً للناس، فكثّر يراما كما يقول لأصحابه إذا رأى شيئاً أسخطه أو أرضاه: ما أخلق هذا الشئىء أن ينشئ صورة أدبية ممتعة للسخط أو للرضاء! وكان يقضي نهاره في السعي والعمل والحديث حتى إذا انقضى النهار، وتقدم الليل وفرغ من أهله ومن الناس وخلا إلى نفسه، فإذا القلم قد سقط من يده، فقد كان يكتبنا كما كان يكتبنا، ينمق هذه ويدبج تلك، كما كان يفعل حين كانت تجتمع له قواها العاملة كلها، وكثّر يراما كما يحدث أصدقاءه بأطراف غريبة قيمة من هذا الفصول والمقالات التي كانت تملئها عليها حلا مبهج ودفء فيها الذمة ومتاعاً. وكثّر يراما كما يقرأ عليهم مفضولاً من النثر ومقطوعاً من الشعر أملاً لها على حفظته، أديب ثم يمتنع عليهم ويلح في الامتناع؛ فهو كان يخاف المطبعة ويكبرها ويحيطها بشيء من التقديس غريب، وكان يتحدث بأن ما يقدم إلى المطبعة من الآثار المكتوبة أشبه شيء بما كان يقدمه الوثنيون القدماء إلى آلهتهم من الضحية والقربان، وبما يتقدم به الآن المؤمنون المترفون إلى إلههم من الصلاة والدعاء، فمن الحق أن تُصطفى الضحية وأن يُتخير القربان، الدعاء صورة للقلوب العقلية. وأنه لم أو يسطر عليه صورة قلبه وعقله. فما زالت الآمال بينه وبين المطبعة بعيدة، فليكتب إذن لنفسه لا للمطبعة، فإذا ضاق بنفسه وبما تملي فليظهر أصدقاءه على شئىء منه ولو يرضه الحاجة القوية التي نحسها جميعاً إلى أن ننشر كالناس فيمانجد منحساً وشعور. أو حين يسألها أصدقاءه عما أحدث بعدهم، وكان يحياؤهم منعهم إظهار عقله وقلبه، وكانت حاجتهم شديدة إلى أن يروا أنفسهم كما كان يراها الشكليات في الصورة تقتحمها العين ولا تكاد تثبت فيه، وكان إلى إقصاء أقرب منها إلى الطول. فزادت بعض أطرافه حيث كان يجب أن تنقص، ونقصت حيث كان يحسن أن تزيد، منبطح غال في الانبطاح، بل لم يكن جاوز الثلاثين، كان يعلّق قصيرهم مقوساً لظهره إذا قام، منحنيّاً إذا جلس، إنما كان منحرف أديب وقلماً كان تعينها الصغیر تانتستقران ببينجفونه الضيقة. ولكنهم عدلوا لكي يخلو من نبرات حلوة تجري عليه إذا قرأ شيئاً فيه تأثر وانفعال، وكثّر يراما حمل ذلك الناس عامة، علماً أن ضيقوا بهو يجتنبوا هذا القوه فيقهوة وأنادوا وملعب مسلماً النفسى، ومنزلاً منقلبي؛ كان يزور نيفاً أنصرف إلى الهنك لشئىء وأقضي مع الساعات، فإذا تركني خيالاً أني لم أقض معاً إلا للحظات القصار. وكنّا إذا أعياني الدرس واحتجت إلى الرياضة أو الراحة أثرت زيارته والتحدث إليه والاستماع له على كل فقد عرفته في القاهرة قبل أن يذهب إلى باريس، ثم أدركته في باريس بعد أن سبقني إليها، عرفته مصادفةً وكرهته كرهاً شديداً حين لقيتها لأول مرة، حريصاً عليها مشغولاً فابها معتزماً ألا أضيع حرفاً مما يقول للمحاضرون، فإن لم يصغذاً تليلاً إلى الأستاذ وإذا بصوت منورائي ينطلق بالحدثاناً، وأضيق بهذا الصوت ويضيق به صاحبها بالذات يكتنفاني. فنلتفت إلى صاحب الصوت نطلب إليه الصمت فلا يسكت إلا ريثما يستأنف الحديث، حتى إذا انتهت المحاضرة وخرجنا من غرفة الدرس رأيناه قد وقف لنا ينتظرنا، أديب وقال في صوت ما تشك أن الأستاذ قد سمعه: «وماذا تريدون أن تسمعوا؟ ولكنكم معذرون، فكل شيء عندكم قيم، واجتهدنا بعد ذلك في أن نجتنب مكانه من غرفة المحاضرات وأن نختار لأنفسنا مجلساً بعيداً منها قصصاً البعد، تركناها ولكن لم يتركنا، فلم نكن نخرج من محاضرة حتى يعرض لنا يأخذ بجيتي أو قفطاني وهو يسألني: «أعجبتك المحاضرة؟» «فإن قلت: نعم» قال: «وماذا أعجبك منها؟ وهل فهمتها على وجهها؟» وكان يقول لي: «هون عليك من هذا الحرص على المحاضرات ولا تتهالك عليها هذا التهاك، فهي أقل غناء مما تظن، فلما ألح عليّ في ذلك سألته: وإذا كنت ترى هذا الرأي فما اختلافك إلى الجامعة؟ وما استماعك للمحاضرات؟ وما تهويشك علينا بصوتك العالي وحديثك الذي لا ينقطع؟ فضحك وقال: الجامعة شيء جديد أحب أن أراه، وقد سئمت القهوة، ولو لم

يكن في الجامعة إلا أنت وأصحابك هؤلاء الذين تتفتح عقولهم للعلم الحديث فيتلقون ما يسمعون في كلف ونهم مصدرهما الجهل العميق، لكان هذا كافياً لأن أختلف إلى الجامعة وأستمع للمحاضرات، ثم سألني ذات يوم: أين تقيم؟ أجبت: أقيم في حي كذا، قال: ومع من تقيم؟ قلت: مع جماعة من الأهل والأصدقاء كلهم يطلب العلم في الأزهر أو في المدارس المدنية، فأنا لا أحب مجالس الطلبة، ومن أن نلتقي في نظام وإطارد، دون أن تجد في ذلك وقد هممت أن أردد عليهم معذراً، فلم أكن أستطيع أن أسهر ولا أتعرف إلى أحد دون إذن من أخي، وكان عليّ أن أغدو مع الفجر إلى درس الأصول، وأسرتي في الريف. وجلس 11 أديب